مدرسة الإسكندرية

تطور المعنى الدلالي للمصطلحات اللاهوتية في القرون الخمسة الأولى (٢)

لاهوتيات المولود- غير المولود وبدايات التنظير اللاهوتي (أ)

أمجد رفعت

إن لم تؤمنوا فلن تفهموا

العدد الخامس - ٢٠١٠

مجلة مدرسة الإسكندرية

عدد ٥

تطور المعنى الدلالي للمصطلحات اللاهوتية في القرون الخمسة الأولى (٢)

أمجد رفعت

إعداد أمجد رفعت

ثبات محتوى تقليد الإيمان الرسولي عَبر العصور:

"إن المسيحية هي ما كانت عليه في كل وقت (وحتى الآن)، وفي كل مكان، وبواسطة كل أحد"[١]، وقد أشار العالِم*Grillmeier* أن الكنيسة الأولى كانت تعيش خبرة صميمية، هي ما أسماه؛ «حدث المسيح *Christ event*»[٢]، ويعني بها تعليم وحياة شخص المسيح له المجد، وهذا قبل كتابة الأناجيل التي وبحسب قوله؛ "لعبت الدور التالي بعد هذه الخبرة الحيّة الدافقة". وكان الإيمان في الكنيسة التأسيسيّة (في عصر الرُسل) يتشكَّل بالسمع *faith from hearing* وينتقل بالخبرة الحيّة والحياة المُعاشة، وذلك قبل الوصول إلى التقليد المُصاغ *formulated tradition* المتمثل في الأناجيل والرسائل الرسولية... الخ، ولا شكّ أن "الإيمان قائم قبل الاعتراف به ومعاش قبل أن يُنطق به"[٣] وأن هذه الدائرة من العقائد، والتي مركزها الرب، اعتُرفَ بها بشكل ثابت ومتناسق من قِبل الكنيسة الأولى *primitive*؛ "حتى لو لم تُقرّر في المجامع بشكلٍ رسمي". والعقيدة لا تُبنى على اقتباس من أب من الآباء أو حتى من عدّة آباء، بل هي سلسلة متماسكة من الفكر والقول والاقتباسات[٤] *catena*. إنّ الاعتراف بشيء يفترض وجود فاصل زمني قبله لدراسته واختباره ومعايشته، كما أنّ كل هذه الشهادات، منذ تفتُّح فجر الكنيسة في عالم البشر، والمنبثقة من خبرات متفرِّقة، تُمثِّلها خبرات

[1] John Henry Newman, *Development of Christian Doctrine*, London 1845, 8.
[2] Aloys Grillmeier, *Christ In Christian Tradition, from the apostolic age to chalcedon (451)*, New York 1964, 36.
[3] John Henry Newman, *op.cit*, 15
[4] Ibid, 12.

وشهادات الرسل والآباء والمجامع المكانيّة والكنائس المحليّة واللّيتورجيّات الأولى والقوانين الأولى مثل قانون الرسل وقوانين المعموديات... إلخ، مجتمعة من كل صوبٍ وحدبٍ في الجماعة الكنسيّة الأولى، هي التي كوّنت وشكلت ما يُعرَف بـ «الإجماع الآبائي[٥] *consensus of doctors*». وعن أهمية الدراسات الآبائية في فهم الإيمان اللاهوتي قال الأب الباحث *John Behr*: "إن الدراسات الكتابية المُهتمة بالأصالة النصية وتحقيقها الزمني والكُتّاب والسياقات ...الخ، لا تستغني أبدًا عن الدراسات الآبائية، التي تُمثل تعقُب للاهوت الآبائي في تفاصيله وشرحه وتوضيحه وصياغته في صور إيمانية وعقائدية، فالآباء قد تناولوا اللاهوتيات إنما ليؤكدوا ويُثبّتوا ما كانوا بالفعل يؤمنون به ويعايشونه"[٦] فقد أعادوا خبر الإعلان الإلهي في المسيح يسوع له المجد بطرق متنوعة وكان الإيمان بإلوهية المسيح مِن المسلمات التي لا تقبل أي جدل، لقد تم معايشتها بشكل كامل لا ريب فيه إطلاقًا، وقد أكد أوريجانوس على هذا في مُستهل كتابه "عن المبادئ περί ἀρχῶν" قائلاً: "كل ما نحن مؤمنون به ومقتنعون هو أن النعمة والحق إنما أتيا بيسوع المسيح". وقد لاحظ الباحث *Trigg* أن أوريجانوس ومِن قبله كليمندس السكندري لم يشاءا تقوى غير عقلية أو غير مُفكِرة (مُغيَّبة) *unthinking piety*[٧] تمثلها كلمة "مقتنعون" وانطلاقًا من هذا نود التأكيد على مبدأ هام في الدراسات الآبائية لحقبة ما قبل نيقيه والذي ينقسم إلى:

١. مدى أهمية هذه الحقبة في التعرُف على الإيمان بإلوهية المسيح له المجد وكيفية اختباره ومعايشته في الكنيسة الأولى المُكوّنة من كنائس محلّية لم تكن تعرف بعضها البعض، لكن كان لهم نفس الإيمان والفكر وهو ما يُثبِّت وحدة التعليم اللاّهوتي وتماسكه أفقيًا من خلال الكرازة الرسولية الواحدة.

---

[5] Idem.
[6] John Behr, *Formation of Christian Theology, Vol.2 The Nicene Faith*, SVS Press 2004, 4.
[7] Joseph W.Trigg, *The Early Church Fathers, Origen*, Routledge London 1998, 13.

٢- إن هذه الحقبة اصطبغت بعدم المنهجية أو النظاميّة *systematic*، حيث لم يشغل بالهم التحديدات والاصطلاحات التقنيّة والصياغات قدر ما شغلهم كيفية معايشة هذا وإعلانه للبشرية روحًا وحياة وعملاً وعمقًا، كان شاغلهم أن يُدافعوا عن مشمول الإعلان الإلهي في إلوهية شخص المسيح المقام من الموت أكثر من كيفية صياغته، ولا نغفل الخلفيات التاريخية الهامة مثل الاضطهاد الروماني الدامي والهجوم الوثني الفكري والفلسفي وتحديات الحياة وِفق تعاليم المسيح الإنجيلية[٨].

وهذا الإيمان كيف يُفسَّر بدون الإيمان بالثالوث، لأن الإيمان بإلوهيّة المسيح "أعلنه بشكل جوهري الإيمان بالثالوث"[٩] ومن هنا أصبح عندنا عقيدة كلية كاملة حُددت بواسطة كنيسة كلية جامعة[١٠]، وكان محور ارتكاز هذا الإيمان هو اللاهوت الثالوثي[١١] *Trinitarian* واللاهوت التجسّدي *incarnational* حيث إنّه كان هناك إجماع *consensus* في الكنيسة على مساواة الابن المُخلص (لاهوت تجسُّدى) في الجوهر ὁμοούσιος وفي الأزليّة *coeternity* للآب ضابط الكل (لاهوت ثالوثي)[١٢] ورغم أنّ - كما قال *Grillmeier* - "العرض الدينامي لعمل المسيح في تدبير الخلاص أُفعم أكثر وأكثر بوعي أنطولوجي إستاتيكي (ثابت) لحقيقة المسيح الإله والإنسان"[١٣] إلاّ إنّه كان على الكنيسة أن تشرح وتُفسِّر كيف هي علاقة المسيح الابن الداخلية مع الآب، في إطار ما يُسمَّى بسر المسيح*Mysterium Christium*[١٤] ولئلا يظن أحد أنّ التعليم اللاّهوتي

---

[٨] إذ لم يتسنَّ لهم أن يجتمعوا معًا ليحددوا صياغات مشتركة واحدة للكل، وهو ما أُتيح للكنيسة بعد منشور التسامح الديني ٣١٣م في عهد الملك قسطنطين.

[9] John Henry, *op.cit*, 11.

[١٠] إنّ مفهوم "العقيدة الكاملة" يعني بنية عقائديّة متكاملة مكوَّنة من مجموعة عقائد متماسكة إذا أنكر أحدٌ إحداها صار هرطوقيًا، فليس فقط "الله مثلث الأقانيم" ونترك "الله المتجسد" و"المتجسد في جسد حقيقي"...إلخ

[١١] المقصود هنا من كلمة اللاّهوت أو اللاّهوتيات هو "التعليم اللاهوتي" ولكن تسهيلاً ومجازًا نكتبها هكذا.

[12] Ibid, 14.

[13] Aloys Grillmeier, *op.cit*, 40.

[14] Idem.

وبخاصة الثالوثي هو امتدادٌ للتعليم الفلسفي الإغريقي فإنني أؤكّد مع العالم *Prestige* قوله: "إنّ نظريات اللوغوس (ما قبل المسيحيّة) اعتُبرت بمثابة استباق تفسيري لإيمان سُلم به بالفعل وهو إلوهية الابن، وليست هي السبب في إعطاء هذا الإيمان هذا القبول، وهذا يعني أن الإيمان بالثالوث نابع من الضرورة الفطرية ليُحسب ضمن المُعطيات الدينية المسيحية، وليس من مُدخلات الافتراضات الوثنية الميتافيزيقية المُسبّقة"[١٥]

ومن هنا يتّضح لنا أكثر أنّ قضية الجدالات اللاّهوتيّة في القرون الأولى وخاصة إبّان نيقية ـ كما قال الأب *Behr* كانت قضية شرح وتفسير *matter of exegesis* لعقيدة وفكر راسخ من قبل، وهذه القضية بين الأطراف النيقاوية والأطراف المعادية لها[١٦]. الأخيرة صممت على التفسير الأحادي *univocal exegesis* فخرجوا بدون إله وبدون إنسان أو "بنصف إله *demi-god*"[١٧] والنيقاويون كان عليهم أن يُفسّروا كيف أُعلنت الألوهة الكاملة في شخص المسيح الواحد فيما يُعرف بـ "الإعلان الإلهي" *God's revealing* لأنه من المُخيِّب ـ يقول الباحث *Lewis Aryes* ـ أن نعتبره جدلاً حول إلوهية المسيح بالمنظور النقدي الحديث، مؤكدًا أن الجدل كان حول ما إذا كان المسيح هو الله الحقيقي *the true God* أم أنه مجرد إله *a God* مساوٍ أو أقل من الإله الحقيقي[١٨]!! ومن اللافت جدًا، يقول *Behr*، أنّ النماذج الإيمانيّة *paradigms* كانت مختلفة تمامًا بين الأطراف النيقاوية عن غيرها[١٩] برغم تشابه بعض التعبيرات، لأنّ النيقاويين كانوا دائمًا يتناقلون هذه النماذج الإيمانية لأسلافهم كل منهم عَوْدًا إلى الوراء، مما شكل التقليد الإيماني

---

15 G. L. Prestige, *God In Patristic Thought*, S.P.C.K London,1959, 11.
16 John Behr, *op.cit*, 7.
17 Ibid,14.
18 Lewis Ayres, *Nicaea and its Legacy, An Approach to Fourth-Century Trinitarian Theology*, Oxford 2006, 14.
١٩ وسنلاحظ هذا جيدًا في تناولنا للاختلاف حول مفهوم التعبيرات عند كل طرف سواء أكان إبان الجدل الثالوثي في القرن الرابع (مع التمهيدات السياقية السابقة عليه) أم اللاهوت التجسُدي أم الخريستولوجيا إبان القرن الخامس والسادس.

الراسخ والمُتدفّق عبر الزمن، بعكس الهراطقة الذين لم يكن لهم خط لاهوتي أو فكري ثابت بل تضارُب وتشاحُن فكري مُخلْخَل ومُشوَّش [٢٠].

السياقات العامة التي نشأت خلالها الصيغ الإيمانية المبكرة

إن الأطُر والبُنى والسياقات الفلسفيّة والعقلية الثقافية التي تزامنت مع الإعلان الإلهي في شخص ربنا يسوع المسيح، هي كثيرة، وسنركز هنا على بعض التيارات الفلسفية المعاصرة آنذاك ولغاتها التي أثّرت وشكّلت لغة عقلية عامة، كان الفكر يدور في فلكها، وكانت اللغة السائدة نابعة من جِدالات فلسفية شكلت المعطيات العامة للصياغات والشروحات، فقد ذكر *Shedd* الدور الذي لعبته خلفيات الفكر الإيماني اليوناني *Grecian theism* الذي كان يمثل نظام الفلسفة الدينية السائدة والمهيمنة خاصة في عصر الجدل اللاهوتي[٢١]. وكانت الفلسفة هي الدين الأكثر قربًا إلى العقلاء ومدّت اصطلاحتها، المفكرين (سواء المسيحيين أو غيرهم)، بأطر فكريّة يستطيعون أن يُعبِّروا من خلالها عن أفكارهم ومبادئهم[٢٢]، لكن كانت الكنيسة مُدقِّقة جدًّا لأنها كانت ترفض كل فكرٍ يُخالف تعاليم الكتاب المقدس والتعاليم الرسولية المُستلَمة من خلال التقليد الحي المحفوظ والمنتقل من كل منهم إلى الآخر، في وعاء عظيم يُسمَّى: "آباء الكنيسة". أو كما يقول *Gilson* "ويبقى اللاهوت في مكانه الخاص... ولا يستعين بالعقل إلاّ لكي يعرض مضمون الإيمان، أو لكي يحميه من الخطأ"[٢٣] ويقول *Shedd* إن الأفلاطونية قد تم فهمها بشكل أفضل واختفى غموض وخيالية الأفلاطونية المُحدِثة، وطغى الفهم الأصيل لما يسمى بالأفلاطونية السقراطية *Socratic-Platonism* ممزوجة بعناصر أرسطالية *Aristotalin Elements* وقد تأثر

---

[20] John Behr, *op.cit*, 11.
[21] W.G.T. Shedd, *a History of Christian Doctrine*, Vol. 1, 68, New York 1863.
[22] J.N.D. Kelly, *Early Christian Doctrines*, Prince Press 3rd printing 2007, 14.
[٢٣] إتين جلسون، الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، الدكتور، التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط. الثالثة ٢٠٠٩، ص ٣١. وُيعد من المراجع الهامة لدراسة ما يعرف بـ "الفلسفة المسيحية"، والعلاقة بينهم، وتناول الفرق بين التنظيرات اللاهوتية المسيحية والتنظيرات الفلسفية في العصر الوسيط.

الآباء الأرثوذكس ببعض المصطلحات الأفلاطونية ولكن في قالب إيماني وفكري لاهوتي مسيحي إنجيلي، وشتان الفرق بين فكرة الألوهة عند أفلاطون والإله الحقيقي المُعلن في شخص ربنا يسوع المسيح، ولا نستطيع أن نغفل التأثير الأرسطالي خلال فترة الجدل اللاهوتي إذ تأثر بعض الآباء بطريقة التحليل والتركيب الأرسطيّة، لأنّ من المعروف أنّ المُعلّم الأوّل (أرسطو) ـ كما يُطلق عليه في مجال الفلسفة ـ هو مؤسِّس علم المنطق الصوري[٢٤]، وفيه اعتنَى بتحليل المفردات، وإزالة الالتباسات، وتقسيم الأمور إلى كُليّات وجزئيّات، وكان دقيقًا جدًّا في تمييزه للاصطلاحات الجدليّة، وهو ما تميّز به مُعلّمنا أثناسيوس الرسولي في تناوله للموضوعات اللاّهوتية. ومن الناحية الأخرى، سنلحظ كيف مدّت بعض أفكار أرسطو الفكر الهرطوقي في بعض عناصره ومحتواه.

الأفلاطونية *Platonism*:

لا نستطيع أن نُحيط بكل الفكر الأفلاطوني فالدراسات والأبحاث والمرجعيات حوله تفوق الوصف، إلا إننا نستطيع أن نُجزم أن فكره (أفلاطون ٤٢٧ ـ ٣٤٧ق.م) ساد وانتشر، وأثر وشكل ثقافة عصر وعقلية زمان بأسره، ولكي ندرك فكر أفلاطون وجوهر نظريته الدينية لابد أن نعرف أنه انطلق من النظرة الازدواجية للكون[٢٥] *Daulistic Picture of Universe* إذ رأى أفلاطون أن هناك نوعين للوجود، ما هو مُتغير وما هو دائم، مادي ولامادي، ظاهري وخفي، مُتغيِّر وثابت، زائف وحقيقي. وبالطبع الأوَّل هو عالمنا والآخر هو عالم المُثُل؛ "يجب علينا بادئ ذي بدء، أن نوجد تمييزًا في حكمي، وأن نسأل بعدئذ ما هو ذلك الذي يكون على الدوام ولا يمتلك صيرورة، وما هو ذلك الذي يكون صائرا على الدوام ولا يكون أبدا؟ إن ذلك الذي يُدرَك بالعقل والاستنتاج المنطقي يكون في الحالة عينها على الدوام، لكن ذلك الذي

[٢٤] المنطق، عامّة، علمٌ يبحث في القواعد العامّة للتفكير الصحيح وآليّاته، فمثلاً كيف ننتقل من العام إلى الخاص، وكيف نستدل على الكل من الجزء... الخ. والمنطق الصوري هو إدراك الأشياء في صورتها كما هي دون الخوض في إثباتها أو نفيها أو دون تجريب.

[25] Christopher Stead, *Philosophy In Christian Antiquity*, Cambridge1998, 29.

يُتصور بالرأي وبمساعدة الحواس وبدون استنتاج منطقي يكون في عملية الصيرورة والفناء، ولا يكون في الحقيقة أبدًا."[٢٦] وقال إن العالم المحسوس المادي (الصائر على الدوام) بما له من تغيُّر وتبدُّل وتعدُّدية لا يجد مبدأه أو أصله من ذاته، بل إن وجوده نابع من عالم آخر غير مرئي ولا متبدل، فهو مجرد تمثيل أو محاكاة لهذا العالم الأخر الذي أسماه بعالم المُثُل ***Ideas*** وهذه المثل تمثلها الأشياء المحسوسة بصورة مشوهة وهذه الأشياء لا توجد إلا بمشاركتها لهذه المثل، لأن كينونتها هي نتاج ومحصلة لعملية يؤديها الفيض الإلهي كصانع[٢٧]، و هو الذي أعطى شكلاً للمادة العشوائيّة ***unformed matter*** ، التي اعتقد أفلاطون بأنّها أزليّة في حدِّ ذاتها وغير مخلوقة وموجودة مع الخالق منذ الأزل ***co-eternal***، وفي محاورته طيماوس ***Timaeus*** دعَى هذا الصانع بالـ ***demiurge*** الذي نظَّم هذه المادة الأوليّة وفقًا للمُثُل الموجودة مُسبقًا، وقال أنّ هذا الصانع كامل وفائق، ومن فرط تساميه لم يخلق إلاّ آلهة أدنَى ***lesser gods*** هم نتاجه ونسله ***offspring***، وأعطى لهم ما له من خلود ***immortality*** [٢٨]، ولعلّ هذا الإله شبيه جدًّا بإله أريوس الذى حاول أن يُسقطه على المسيح اللّه الكامل الواحد له المجد.

الأرستطالية *Aristotalianism*:

[٢٦] حسن حسن كامل إبراهيم، الدكتور، العالم : حدوثه وطبيعته عند أفلاطون، كلية البنات – جامعة عين شمس، ص ٣.
[٢٧] ومن هنا نبدأ نلاحظ أن فكرة الألوهة عند أفلاطون تشمل "فيض إلهي" غير شخصاني، وبحسب ***Gilson*** فإن إله أفلاطون "يجمع في ذاته الشمول الإلهي، وشمول الوجود أيضًا" (ص ٨٨ من نفس المرجع) وان ثمة درجات أو مراتب في الإلوهية (ص٨٩) فالإلوهية عنده هي درجة من درجات الوجود غير المادي أو الوجود الفعلي الخالص (ص٩٠)، فإذا كان الإنسان موجودًا غير مادي فهو إله ولكن في درجة اقل، ومن هنا فإن الألوهة هي شيء شائع بين الموجودات.
[28] Hugh H. Benson, *ed., a Companion to Plato*, Blackwell Publishing Ltd 2006, p208.

انتقد أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م) أستاذه أفلاطون في نظريته حول المثل والنماذج ووجودها المستقل، وأزليتها وعدم تغيريتها وكونها حقائق مُثُلية *Ideal Realitis* يُشترك فيها أو تُحاكى مِن قِبل الموجودات الحسية، واعتقد أرسطو أن النماذج *Forms* ليس لها وجود، ووضع نظريته في الهوية أو الذاتية *Immanent* والتي تقوم على أن؛ "الشيء هو نفسه"[٢٩] مثل أن نقول "الإنسان هو الإنسان" واتجه لُغويًّا إلى ما يُسمى "ذاتية مدلول اللفظ" أي عدم الخلط بين الشيء وما عداه وألا نُضيف للشيء ما ليس فيه، فبالنسبة له فإن مخالفة هذا المبدأ يضعنا في تناقض وفساد الاستدلال، وميّز أرسطو بين الجواهر الأولية *primary substance* والثانوية *secondary* فالجواهر أو الطبائع الأولية هي الأساس الأنطولوجي الذي إذا لم يوجد لا توجد الطبائع الثانوية[٣٠]، وعلى سبيل المثال فإنّ، "الإنسان" جوهر أولي، أما الجواهر الثانوية فهي المقولات (الصفات) *qualities* والمعيار *quantity* والجنس أو النوع *species*، وأطلق على الأولى صفة "التخصصيّة *particular*" أما النوع الثاني فهي الطبائع العامة (التي يتشارك فيها نفس الجوهر أو الطبيعة الأولية) فإذا قلنا "بطرس ويوحنا" فهذه تخصيصات، أما إذا قلنا "ذكر وشاب وقوي...إلخ" فهي صفات عامة، وعناصر ملازمة[٣١] *inherent items* للطبيعة أو الجوهر، وقد وصفها أرسطو بـ *non-substance*، أي التي ليس لها وجود حقيقي وهي عارضة *accident*، ومِن هنا طرح أرسطو في ميتافيزيقاه شرحًا مطولاً حول مفهوم الـ οὐσία ميّز فيه وبوضوح بين طرق التعبير عن الوجود، حيث قدم نظريته في "الماهية *what*"، فالماهيّة هي وحدها التي توضح الجوهر

---

[٢٩] هذه النظرية هي أول محاولة لوصف إله له وجود ذاتي واقعي أو ما اسماه أرسطو οὐσία لكنه لم يستطع أن يواصل الأمر وعاد ليخلط أوراق اعتماد هذا الفكر بالورقة الأفلاطونية، ليقول عن وجود الله، إنه الفعل الخالص للفكر الذي يفكر في نفسه (جيلسون ص٩١) ووضع بجانب المُحرِك ألأول عدة محركين ثانويين، لكن الله في اللاهوت المسيحي، كما يقول جيلسون "هو الفعل الخالص للتواجد أو الوجود الفعلي" مبنيًا على ما أعلنه الله شخصيًّا لموسى على الجبل انه «أهيه الذي أهيه*Ego Sum qui Sum*» (ص ٩٢،٩٣).

[30] Georgios Anagnostopoulos, ed., *A Companion to Aristotle*, Blackwell Publishing Ltd 2009, 197.

[31] Ibid, 198.

substance فربما نقول أن هذا الشيء أبيض أو إنه ساخن، لكن كل هذه ليست إلا حالات أو صفات *qualities* وتعتبر إجابة للسؤال *what is it like?* أو *how is it?*، وليس*what is it?*. فهو المعنى الأولي للكينونة "is" فهذا السؤال هو المُعبر عن الجوهر الفرداني[٣٢] *individual substance*، ومن هنا نبدأ نلحظ التأثير التنظيري لهذا الفيلسوف على التنظيرات اللاهوتية للآباء وخاصة القديس أثناسيوس الرسولي، الذي أوضح أن هناك فارقًا هائلاً بين الحديث عن الله "في ذاته" وعن الله "في علاقاته الخارجية"[٣٣] وكذلك الآباء الكبادوك الذين ميزوا بين الثيولوجيا θεολογία بأنها الحديث عن جوهر الله ذاته وهو ما تمثله عقيدة الثالوث، و"التدبيريّة οἰκονομία" وهي ما تخص أعمال الله للإنسان وتمثله عقيدة التجسد الإلهي (والاثنان هما محور اللاهوت المسيحي كله).

وقد صاغ أرسطو في كتابه عن الطبيعة *Physics* نظرية المُحرِّك *Mover* الذي يُحرِك الأشياء وهو لا يتحرك[٣٤] *unmoved mover* وأطلق عليه المُحرِّك الرئيس *Prime mover* واعتبره العلة النهائية *Final cause* الذي بدون أجزاء، وغير منقسم *Indivisible* وهو جوهر بسيط خالٍ من المادة[٣٥] *immaterial being* أو الصورة، وهو نموذج فرداني محض *pure individual form* يمتلك وحدة وله وجود في الواقع *Existing in actuality*، ورغم أنه المحرك لكنه ليس الخالق بل فقط هو منظم المادة العشوائية الأزلية، ويقف وراء تطور المُثُل[٣٦] *development of form*، ولذا لا يعتني بالعالم، لقد نظمه وتركه[٣٧]، ويضيف أرسطو: إن حياة الله هي

---

[32] Christopher Stead, *op.cit*, 29.

[٣٣] وهو ما سنتناوله في مقالنا التالي بأكثر تفصيل إذا أحبت نعمة الرب.

[34] David Bradshaw, *Aritotle East and West Metaphysics and the Division of Christendom*, Cambridge 2004, 25.

[35] A. E. Taylor, *Aristotle*, 48.

[36] Ibid, 50.

[٣٧] وهذا الأمر له علاقة بالنسك المسيحي، إذ أن الله عند أرسطو هو عِلة غائية (محور الاهتمام) أما التنظير المسيحي فيقول إن الله هو العلة الفاعلة (الذي يهتم) في فعل حبه بالعالم، وكما يقول جيلسون "أما إله أرسطو فهو الله الذي يرفض

تأمُّل ذاتي سرمدي *everlasting self-contemplation* ونحن بالتأمل ندخل إلي حياة وسعادة الألوهة!!

أما المعتقد الخطير الذي أظن أنه صاحب التأثير الأقوى على التنظيرات الهرطوقية هو "عدم خروج شيء من شيء آخر"[٣٨]. ويقول أرسطو ما نصه "لأن الشيء يخرج من شيء آخر بطريقتين الأولى: على نحو ما يقال أن الرجل يأتي مِن الصبي، أي عن طريق التغُيرات التي تطرأ على الصبي، الثانية: على نحو ما يأتي الماء من الهواء"[٣٩] في الأولى يطرح نظرية (التماهي الذاتي) أي أن الصبي والرجل هما واحد وحدة مطلقة وليس شخصين أو حقيقتين *Realilty* بل إنهما حقيقة واحدة (وهو ما تأثر به سابليوس في فكره عن الثالوث)، الثاني هو أن خروج الشيء من آخر يتحتم تدمير هذا الآخر، وكذلك استعمل بعض التشبيهات الأخرى مثل خروج النهار من الليل وهو التنظير الذي استعمله أريوس في شرحه للثالوث، حيث ظن أن الابن بعد الآب في الوجود وليس معه *Co-existance*، وتخوف من أن ولادة الابن قد تسبب انقسامية وتمزيق الآب.

أما نظريات أرسطو في الأفعال ἐνέργια والطاقات δύνάμια فهي في غاية الخطورة، حيث ميّز أرسطو بين الاثنين موضحًا أن الـ ἐνέργια هي الفعل *Activity* أو النشاط الخارجي الظاهر الذي يُعبر عن القدرة أو القوة الكامنة δύναμις، وبحسب *Bradshaw* فإننا لا نستطيع أن نُدرك الـ δύναμις إلاّ من خلال النشاط الخارجي الـ ἐνέργια [٤٠]، وتأتى هذه

أن يُحب فالحب الذي يُحرك السماوات والنجوم هو حب السماوات والنجوم لله" (ص ١٢٣) إلا انه يضيف أن الله "علة غائية" بقوله "فهو السبب وهو الهدف في ذات الوقت" (ص ١٦١) بمعنى أنه هو خالقنا وغايتنا وغاية النفس والروح والعقل والذي به وجودنا وكياننا يتحقق.

[٣٨] لكن المبدأ الذي قام عليه نشأة الكون *Cosmogeny* في الفلسفة هو "لا شيء يخرج من لا شيء *ex nihil nihil fit*" وهو ما بنى عليه أفلاطون (وجُل الفلاسفة اليونانيين) فكرة أزلية المادة، لأن عقيدة الخلق من العدم هي عقيدة مسيحية صرف.

[٣٩] إمام عبد الفتاح إمام، الأستاذ. الدكتور، مدخل إلى الميتافيزيقا، مع ترجمة للكتب الخمسة الأولى من ميتافيزيقا أرسطو، نهضة مصر للطباعة والنشر ٢٠٠٥، ص ٢٨٩.

[40] David Bradshaw, *op. cit*, 59.

الأفكار المشّائية[٤١]، ضمن التنظير الخطير حول "الحركة والصيرورة" وتفسيراتها الهائلة والتي تتناول كيفية عمل الموجودات وحركتها وصيرورتها، وعند أرسطو فإن الصيرورة هي "التدرج من حالة الحركة إلى حالة الفعل"[٤٢] أو من "δύναμις إلى ἐνέργια" وبما أن كل الأشياء والموجودات "مثل الإنسان" تتحرك، فهي تتحرك بالفعل الخارجي وليس بالجوهر الداخلي "لأنها متغيرة وتعتمد على المُحرِّك في وجودها" لذا وجب أن يكون هناك مُحرِك لا يُحركه أحد "وإلا أصبح لدينا لانهائية في المحركات" (وهذا هو الإيمان المسيحي في وحدة مصدر الكون "وهو الله" الذي لا يوجد غيره أو قبله محرك) وهو التنظير الذي أثّر على لاهوتيات "لامولودية الآب ἀγέννητος"، وأن اللامولود هو واحد فقط، ومن هنا ننتقل إلى النقطة التالية ولعلها ذات علاقة ببعض من هذه المفاهيم الأرسطالية.

الجدل اللاهوتي بين اللاهوت التنزيهي "الأبوفاتيكي" والتدنّاوية *subordinationism*:

ولكي نفهم بدايات الفكر التنزيهي لابد أن نعود إلى فيلو اليهودي المتهلّن *Hellenistic Jew*، الذي شدد على الوحدانية المطلقة الصارمة لله، وعلى إرادة الله الحرة في عمل الخلق وعقيدة الخلق من العدم، وقد ميّز فيلو بين طبيعة الله *God's nature* وعمله *Activity*، ومن هنا ميّز بين معرفة الله في ذاته *as He is* ومعرفته في نعمائه وأعماله، ولعب مفهوم اللوغوس عند فيلو دورًا هامًا، إذ اعتبره الوسيط *Mediator* بين الله والخليقة، ونقطة الوصل

[٤١] نسبة إلى المدرسة التي أسسها أرسطو، حيث كان يُعلّم أرسطو ويحاور تلاميذه وهم يمشون في الممرات المسقوفة داخل هذه المدرسة

[٤٢] جيلسون ص ١١٣، اعتقد أرسطو أن الوجود هو الحركة "من إلى" والموجود عنده هو "إما بالقوة أو بالفعل" والحركة وسط "بين القوة المحضة والفعل التام" (جيلسون ص١١٣) وهي أفكار لها علاقة وثيقة بنظرية المُحرك الذي لا يتحرك في ذاته، ولكنه يُحرك الأشياء بفعله، وهو التنظير الذي أثر على نظريات اللوغوس الوسيط "الذي يُعادل الحركة عند أرسطو" في النظريات الغنوسية. أما الله في المسيحية لا يتغير ولكنه يخلق "فعل حركة" تعبر عن "جوهر حُبي" يُمثل "وجود واقعي ذاتي" لا يعتمد في وجوده على شيء.

بين"اللّه ذاته" و"اللّه عمله" أو "نعمته"[٤٣]، ومن هنا ميّز بين "الإله الأعلى" *supreme being* و"الكائن الإلهي" *divine being*، الأول هو اللّه المُطلق αὐτοθεός، بينما الثاني هو اللوغوس، واحد مُعرّف ὁ θεός والآخر بدون أداة التعريف ὁ، الأول هو "الإله" والثاني هو "إله" وهي نظريته المعروفة بـ "الإله الثاني"[٤٤]، وهو التنظير الذي اعتمد عليه فيما بعد المناوئين لنيقيه، في وصفهم للمسيح الكلمة، بالإله الثاني أو الإنسان المتألّه أو مجرد إله اكتسب الألوهة لتقواه!!

ونجد فكرة التنزيهية التي ارتبطت بالوحدانية الإلهيّة[٤٥]عند القديس كليمندس السكندري الذي يُعتبر مؤسِّس التعليم اللاّهوتي الأبوفاتيكي المسيحي، حيث أكد على عدم قدرة إدراك اللّه في ذاته، فنحن أبعد ما نكون *alienated* عن طبيعته، فكل علاقتنا به هي مع عمل إرادته[٤٦] *work of his will*، وإذ لا نستطيع نحن أن نرتقي إليه يحنو هو علينا متنازلاً، ومن هنا نلحظ كيف خدم الفكر الأبوفاتيكي اللاهوت التجسّدي عند ق. كليمندس؛ "إن الحكمة صانع كل الأشياء يقودنا إلى ضابط الكل، الكيان *being* غير المدرك ... لكن هذا البعيد، الأعجوبة غير المدركة! أصبح قريبًا جدًّا ... هو بعيد عنا في جوهره *essence*، لأنّه كيف للمخلوق أن يُدرِك غير المخلوق، لكنه قريب جدًا في صلاح هذه القوة التي تضم كل الأشياء، لأن قوة اللّه حاضرة دائمًا في وصالٍ معنا"[٤٧] واللوغوس عنده هو الجانب المعروف في اللّه[٤٨] *knowable aspect of God* وهو مشير الآب،

---

[٤٣] تتبع ولاحظ تأثير الفكر الأرسطي على فيلو في تنظيرات اللوغوس، وترقَّب كيف ستؤثر هذه المفاهيم على الفكر بعد قليل.

[44] G. L. Prestige, *op. cit*, 146.

[٤٥] نعم لقد نزّه الآباء طبيعة الله عن كل شيء، لكنها ليست مثل التنزيهية الأبيقورية، ألتي تستوجب إنعزال الله وإلغاء فكرة العناية والتدخل الإلهي في حياة البشر، فاللاهوت المسيحي يجمع بين التنزيهية ألتي تخص طبيعة الله والتدبيرية الإلهية ألتي تخص أعمال الله ونعمته ألتي يُغدقها علينا بلا إنقطاع.

[46] Rowan Williams, *op. cit*, 124.

[47] ANF., Vol.2, *Stromata*, Book 2, Chapter 2, 348

[48] Rowan Williams, *op. cit*, 127.

حكمته وقوته والمنُظِم الأصلي *primary organizer*، وهو صورة الله الأصلية *primary image of God* والحياة ذاتها αὐτοζωή. ويُنزّه ق. كليمندس، الآب، عن كل معرفة نظريّة، فالابن هو وحده الذي يُعلن الآب، وهو المبدأ اللاّهوتي الراسخ والذي نجده عند كل الآباء، وكثير من الكُتَّاب الكنسيين المُعتبرين. ويقول ق. كليمندس في متفرقاته: "من خلال اللّوغوس نستطيع أنْ نعرف الآب غير المُسمّى، إذ من الصعب أن نعرف المبدأ الأوَّل *first principle* لكل الأشياء، المبدأ الأوَّل والأزليُّ المطلق، علّة كل الأشياء الأخرى الموجودة والحادثة، من الصعب أن يُدرَك، لأنه كيف يُعبَّر عن هذا الذي ليس هو نوع، ولا تباعُد، ولا جنس، ولا فرد، ولا عدد، ولا أي شيء آخر... لا أحد يستطيع أن يُعبِّر عنه كليّة، ومن أجل عظمته يُصَف بالكلّ، وأبّ الكون، ولا تسطيع أيّة أجزاء أن تُعلنه، لأنه هو الواحد غير المُنقسم، لذلك أيضًا هو لامتناهي، وليس له أبعاد، ولا حد، لذا هو بلا شكل أو اسم... لكن ليس شيء سابق على غير المولود *unbegotten*، ولكن يبقَى أن نقول أن غير المعروف نعرفه بالنعمة الإلهيّة وبالكلمة وحده النابع منه"[٤٩]. وهكذا نرى كيف عاشت وفهمت الكنيسة، الثالوث القدوس، في إعلان شخص يسوع المسيح لِلألُوهة المُختبئة والمحُتجبة، ليتكشّف للإنسان عِلّة وغاية وجوده في ديمومة فعل الحبّ الإلهي / الإنساني، المتمثّل في الكلمة الأزليّ المتُجسد[٥٠].

وتستوقفنا لاهوتيات المدافعون التنزيهية عن الآب، فالقديس يوستين الذي اصطبغت اصطلاحاته بنزعة رواقية أفلاطونية[٥١] قد أكد على الوحدانية والتسامي الإلهي الفائق وعلى أن الله غير مُتغيّر وبلا انقسام وإنه غير مولود ἀγέννητος، وقد تحدث عن إلوهية الكلمة الابن وكيف كان المسيحيون

---

[49] ANF, Vol.2, *Stromata*, Book 5, Chapter 12, 463-464.

[٥٠] إذا تتبعت تعاليم ق. كليمندس ستكتشف السيمفونيّة العذبة التي يُكملها عن المسيح المُعلّم (من خلال كتابه الرائع المُربّي)، وعن المُخلِّص واهب الحياة الجديدة ومؤسِّسها، الذي في حبه ولطفه يقودنا إلى معرفته، والتي تقودنا إلى الخلود والتمجُّد والحياة الإلهيّة. لكن عُذرًا، فلا يسع المجال هنا أن نتحدّث عن تعاليمه اللاهوتيّة التي لا يكفيها مقالٌ أو كتابٌ.

[51] J.N.D. Kelly, *op. cit*, 84.

يعبدونه "ولكننا نؤمن بالإله الحقيقي ... ومعه نبجل ونعبد ونكّرم بالروح والحق الابن الآتي من لدنه"[٥٢] ويقول عن الله إنه "أب العالم وخالقه"[٥٣] وعن لاهوتيات الآب غير المولود قال "لأننا طالما آمنا بالكلمة تركنا عبادتهم لكي نتحد بواسطة الابن بالآب غير المولود"[٥٤] وأيضًا قوله "إن خالق الكون لا يُسمى لأنه غير مولود ... وابنه وهو الوحيد الذي يُدعى حقًا ابنًا، الكلمة الكائن معه، والمولود قبل الخلق، الذي بواسطته خلق ونظّم كل شيء منذ البدء"[٥٥] وأكد على لاهوتيات "يسوع المسيح الابن" بقوله "يسوع المسيح وحده هو ابن الله الحقيقي، كلمته، مولوده البكر وقدرته"[٥٦] وأن المسيح المصلوب هو ابن الله الأزلي، وقال عن اليهود" إنهم لا يدرون أن أب العالم له ابن، هو الكلمة بكر الله وإله"[٥٧] ولكن تطُل علينا بعض من أفكار التدنّاوية في بعض عباراته مثل "إننا بعد الله نعبد ونحب الكلمة المولود من الله الأزلي والفائق الوصف، الذي صار إنسانًا لأجلنا حتى يشفينا من أسقامنا باشتراكه فيها"[٥٨] وفي حواره مع تريفو اليهودي وحول الظهور لإبراهيم رفض أن يكون الآب هو الذي ظهر له وقال إن الذي ظهر له هو آخر ἕτερος في العدد *in number* وليس في الإرادة[٥٩]، وأكد أنه "كان حقًّا الله الكائن قبل خلق العالم"[٦٠] إلا أنه حاول أن يُعبِّر عن التمايز الأُقنومي لكنه أخرجه

---

٥٢ القديس يوستينوس، *الدفاع عن المسيحيين*، *الحوار مع تريفو*، أقدم النصوص المسيحية، سلسلة النصوص الليتورجية (٧)، تعريب جورج نصّور، الأب، الكسليك ٢٠٠٧، ص ١٤-١٥.

٥٣ المرجع السابق، ص. ١٦.

٥٤ المرجع السابق، ص. ٢٣.

٥٥ المرجع السابق، ص. ١٠٠.

٥٦ المرجع السابق، ص. ٣٥.

٥٧ المرجع السابق، ص. ٨٤.

٥٨ المرجع السابق، ص. ١٠٩.

59 John Behr, *Formation of the Christian Theology, vol.1, the Way to Nicaea*, SVS press, 2001, 104.

٦٠ القديس يوستينوس، *ص*. ٢١٦.

على النحو التالي "وهو سيد إلى جانب السيد الذي في السماء أي صانع الأشياء كلها"[٦١].

ومن هنا نلحظ كيف حاول الآباء المدافعون أن يحافظوا على ألوهيّة المسيح المُطلقة في ظل الوحدانية الإلهيّة الكاملة وتمايز الابن عن الآب كوجود حقيقي ولكنهم لم يستطيعوا أن يشرحوا ويصلوا إلى الصيغ والتعبيرات والتشابيه اللائقة وهو ما فعله آباء نيقيه، فالابن هو "آخر" أي غير "الآب نفسه" إلا إنهم ليسوا قوتين ولا إرادتين بل إنهم واحد في كل شيء، فمعنى كلمة "آخر" عند يوستين "أقنوم آخر" بالاصطلاح النيقاوي الذي ابرزه الآباء الكبادوك لاحقًا، وهو ما سنتناوله بالتفصيل فيما بعد.

وإذا أخذنا ق. إيريناؤس كنموذج للفكر اللاهوتي ما قبل نيقيه، نجد عنده فكرة التنزيهية أو الفائقية التي ارتبطت بالوحدانيّة، فقد وردت كلمة ὑπερχή (الفائقيّة) في "ضدّ الهرطقات" إذ يقول: "اللّه هو مصدر الخلود وعدم الفساد، لأننا من فائقيّته (طبيعته الفائقة) *His transcendence* نأخذ الديمومة الأبديّة، وليس من طبيعتنا" [٦٢]. كما طوَّر إيريناؤس نظرة يوستين بقوله أن الابن هو الإعلان الذاتي عن الآب، المبني على الأساس الكتابي في قول المسيح له المجد «من رآني فقد رأى الآب» (يو١٤:٩) فبحسب إيريناؤس: "الآب مرئي في الابن، يسوع المسيح"[٦٣]. إنّ نظرية "غير المرئي ـ مرئي" هذه صاغها ليوضح علاقة الابن بالآب وهي توازي عنده "نظرية المسيح هو كل شيء فيما يعني اللّه وكل شيء فيما يعني الإنسان" وهي المُتضمنة في تعليمه عن "الانجماع الكلي في المسيح ἀνακεφαλαίωσις".

وعلى نهج يوستين جاهد إيريناؤس في شرح التمايز بين الآب والابن، مشيرًا للابن على أنه "غير الآب إله الكل" وتحدث عن ولادة الابن من الآب "إذا سأل أحد كيف يصدر الابن من الآب؟ سنُجيب إنه الإنسان لا يفهم هذا الصدور أو

---

[٦١] المرجع السابق، ص. ٢٢٠.

[62] HAE 5.2.3, cited by; John Behr, *op. cit*, 104.

[63] John Behr, *op. cit*, 104.

هذه الولادة أو هذا الاتّصال أو أي اسم نستطيع أن نصف به ميلاده، لأنه في الحقيقة غير موصوف ... لكن الآب هو وحده الذي يلد والابن هو المولود"[٦٤] لأنه إن لم يكن هكذا فليس هناك أية صلة حقيقية بين اللّه والإنسان "في يسوع المسيح" وسوف نرى كيف انتقص الأريوسيون من إلوهية الابن معتقدين أن الوحدة أو الشركة بين اللّه والإنسان التي شرحها إيريناؤس من الممكن أن تكون نِتاج عمل أو نشاط الابن الخارجي *activity* لكن ق. إيريناؤس أكد أنها نتيجة ومحصلة "لطبيعة الابن" الأصيلة الألوهة وليس نتاج نشاطه الخارجي أو مُجرد عمله.

الإرث الأوريجاني *Origen's Legacy*

أوريجانوس ورغم إنّه سيبقَى محور اختلاف التاريخ، فقد أثّرت لاهوتياته الشبه نظاميّة ولعبت الدور المحوري في بعض الأوقات وبعض الصراعات وفي أفكار شخصيات جدالية تاريخية، ولعبت طرقه ومدرسته التفسيرية الدور الأقوى إذ صبغت لاهوتيات وتفاسير القرن الرابع[٦٥] ما حدا بعالم كبير مثل *Prestige* أن يقول "إن أوريجانوس هو الأب المشترك للأريوسية والأرثوذكسية النيقاوية بآنٍ واحد"[٦٦] فمن الناحية الأرثوذكسية استفاد اللاهوت الأرثوذكسي من أوريجانوس تأكيده وعقيدته في وجود الابن وتمايزه الأقنومي عن الآب، لأن أوريجانوس أكد على الحقيقة الواقعية ὑπόθεσις للابن سواء في صيغة الـ ὑπόστασις أو الـ οὐσία، إذ تحدى كلسوس بقوله "أَثبت لي أن آلِهتك لها وجود حقيقي οὐσία"[٦٧] (ونلحظ هنا فهم مصطلح الـ οὐσία على أنه الوجود الحقيقي reality)[٦٨] كما أكد أوريجانوس على وجود حقيقتين πράγματα في اللّه لكنهم واحد في التوافق συμφωνία ووحدة الإرادة، في رده على الذين ادعوا أن الآب والابن هم واحد ولا تمايز

64 Johannes Quasten, *Patrology vol.1*, Christian Classics1994, 295.
65 Lewis Ayres, *op. cit*, 21.
66 G. L. Prestige, *op. cit*, 131.
67 Rowan Williams, *op. cit.*, 132.
68 John Behr, *op. cit.*, 186.

بينهم إلا في الفكر ἐπέννοια والأسماء فقط، إذ اعتبروا أن الكلمة عبارة عن نطق مجرّد، ولِذا فهو غير شخصي، أي أنه هو هو الآب نفسه[٦٩]، وبطريقة تحليل أرسطية قال أوريجانوس شارحًا "إن وجود الابن نابع من وجود الله كآب، وليس من وجوده كخالق"[٧٠] والابن بالنسبة له هو حكمة الله وقوته، لِذا لابد وأن يكون مع الآب *co-existent* منذ الأزل، وأن لغويات "الآب ـ الابن" تتضمن الوجود المشترك للاثنين، إذ لا نستطيع أن ندعو أحدًا آبًا إلا إذا كان له ابن[٧١] وإذا كان الله آب منذ الأزل فلابد أن تكون وِلادة الابن منذ الأزل[٧٢]، وبحسب تعبير *Ayres* "إن أوريجانوس رأى في الابن وجودًا جوهريًّا وذاتيًّا حقيقيًّا *intrinsic* لكيان الله ووجوده"[٧٣]، كما نلحظ دور أوريجانوس التفسيري للاصطلاحات الحكمية؛ "فإنها (الحكمة) بخار قوة الله وصدور مجد القدير الخالص فلذلك لا يشوبها شيء نجس، لأنها ضياء النور الأزلي ومرآة عمل الله النقية وصورة جودته" (حك ٧:٢٦، ٢٥)، إذ أكّد من خلالها على أزلية الابن، إذ كيف يكون الابن هو إعلان وانعكاس (مرآة) وضياء نور الآب إن لم يكن أزليًّا معه، فضلاً عن استخدامه لاصطلاحات الصورة وبهاء المجد ورسم الجوهر وإعلانه (كو ١:١٥ وعب ١:٣)، إذ لا شيء فيه إلا ويعلن حياة الآب نفسها، ومن هنا نبدأ نلحظ رسوخ مبدأ "الابن من الآب" ولغوياته التي صارت جدلية في القرن الرابع، حيث أكدها النيقاويون ومَن بعدهم في مجمع القسطنطينية "نور من نور" و"إله حق من إله حق" لكن سنرى كيف فَهِمت الأطراف غير الأرثوذكسية مبدأ "*x from x*" هذا وأَوَّلوه لكي يخدم أفكارهم المُنحرفة، على أنه يُمثِّل العلاقات

---

[69] John Behr, *op. cit.*, 185.
[70] Idem.
وهي عبارة محوريّة في اللاّهوت الأرثوذكسي، وستتكرّر كثيرًا في حديثنا لِما لها من دلالة وأهميّة بالغة، وهي تعني أن وجود الابن ليس شيئًا مضافًا إلى الله من الخارج بحسب ال ἐνέργια ولكنه ذاتي الوجود في كيان الله.
[71] Lewis Ayres, *op. cit.*, 22.
[72] Idem.
[73] Ibid, 23.

السببية[٧٤] *causal relationship* لكي يفصلوا بين العلة ومعلولها[٧٥]، معتقدين أن الآب هو العلّة والمعلول هو الابن، جاعلين الآب أسبق وأسمى من الابن، في الزمن والمكانة والجوهر، ولكن كما يقول *Ayres* ليس هذا هو فهم أوريجانوس، لكن لابد ألا نُنكِر أن بعض تعبيراته خدمت الفكر الأريوسي ممّا جعل ق. إبيفانيوس أسقف سلاميس المناوئ الشرس للأوريجانية يعتقد أن بعض تعبيراته كانت هي الذخائر التي زُوِّدت بها المدفعية الأريوسيّة (بحسب تعبير *Prestige*). إلا أنّ *Williams* يختلف مع الكثير في هذا الجدل مميزًا بين تعاليم أوريجانوس وأريوس، يقول "إن إله أريوس يستوجب فرد مخلوق *created individual* من أجل إعلانه الذاتي، بينما إله أوريجانوس فهو - أزليًّا وحتميًّا - واحد وهو الذي يُعلن نفسه في كلمته ببساطة ليتجاوب ويتمجد ويبتهج في كينونته الذاتية، قبل الخليقة وأعلاها"[٧٦] وإن كان هذا صحيح إلا أننا نجد وبوضوح أفكاره حول "الاعتمادية" *dependency*، حيث قال إنّ الابن يعتمد في وجوده على الآب، وإنه ليس قوة الآب ذاتها *the one power of God*، لكنه قوة أخرى متمايزة تعتمد على قوة الله الذاتية في الوجود[٧٧] وتخوف كالكثير من معاصريه، من تعبير الـ ὁμοούσιος إذ ظن أنه إذا كان الاثنان لهم نفس الـ οὐσία فليس لهم نفس الوجود الخاص أو المتمايز[٧٨] *distinict subsistent* (وهي اللغة التي استغلتها الأطراف غير النيقاويه ليفصلوا بين جوهر الآب وجوهر الابن) ومن فرط تخوفه من اللغويات المادية (الغنوسية ومن قبلها الرواقية) استبعد أن يكون الابن من οὐσία الآب، حتى يتفادى انقسامية الآب بولادته المادية لِلابن (بالظن أن الولادة تتطلّب انقسامًا ماديًّا، وهو ما أثاره بعض الغنوسيين أمثال *Valantinian*)، وقدم

---

[74] Idem.

[٧٥] ومن ناحية المنطق الفلسفي، يقول جيلسون "إن فهم الله وعقل الله هو الله نفسه، ولابد أن نقول أن إرادة الله هي الله نفسه، ومن ثم فإن من المستحيل تمامًا أن يُدرك المرء كيف يمكن أن تكون هناك علاقات سببية داخل ذات الله" (ص١٤٥).

[76] Rowan Williams, *op. cit.*,146.

[77] Lewis Ayres, *op. cit.*, 24.

[78] John Behr, *op. cit.*,186.

أوريجانوس لاهوتيات "المشاركة"[٧٩] *sharing or participation* في وصفه لعلاقة الابن بالآب، ونجد كذلك تلميحات عن تراتبيّة[٨٠] *hierarchical* الآب والابن والروح القدس في تفسيره لإنجيل يوحنا؛ "إننا نقول أن المُخلِّص والروح القدس لا يُضاهما وهم فائقون تمامًا على كل الأشياء المصنوعة، ولكن أيضًا الآب هو أعلى منهما، كما أنهم أعلى من الخليقة"[٨١]، ونجد كذلك بعض العبارات التدنّاوية في كتابه "ضدّ كلسوس"[٨٢]، وفي عدة أماكن أكد بشكلٍ عام على التسامي المطلق الذي للآب على كل الأشياء. وفى نفس الكتاب السابق أكّد أيضًا على أنّ "الآب هو فوق العقل νοῦς والجوهر οὐσία"[٨٣] وفي تفسيره لإنجيل يوحنا حاول أن يُحافظ على تسامي الآب بقوله "إذا كان الابن هو النور الذي يسطع في الظلمة، فإن الآب هو النور حيث لا يوجد ظلمة"[٨٤] وإن كان اللّه هو إله الحق إلا أنه يعلو على الحق ذاته[٨٥]، وهذا تنظير أفلاطوني واضح، لأن أفلاطون في تعاليمه الأزدواجيّة، ميّز في محاورته الأشهر؛ الجمهورية، بين ما هو صالح بطبيعته أو الصلاح ذاته *goodness itself* (وهو الصانع أو الإله مثال الخير) وما هو صالح عرضًا *incidentally*، في إشارة إلى أن اللّه ليس هو علّة الشر، بل المادة هي علّة الشر ولذلك هي أزليّة (عنده)، أما بالنسبة

---

[٧٩] لعل لاهوتيات المشاركة تخدم في نظر أوريجانوس مبدأ التمايز الأقنومي، لأن من الناحية الفلسفية والمنطقية تتطلب عملية الشراكة وجود حقيقتين متمايزتين، فلا يمكن لشخص أن يُشارك نفسه، فلابد من وجود "آخر"، ولعله قريب من اللاهوتيات الثالوثية النيقاوية (في الوحدانية المتعددة) التي تقوم عليها أنثربولوجي الآخرية "*otherness*" المسيحية، التي تُحتّم وجود الآخَر وقبوله واحترامه... إلخ.

[٨٠] يُميّز الآباء بين تراتبيّة "الإعلان والظهور" المقبولة، وهي تراتبيّة معرفتنا نحن بأقانيم الثالوث، دون انفصال أو انقسام أو إبعاد... الخ. والتراتبيّة المرفوضة التي تختلط بالتداويّة.

[81] *Commentray on John* 13:25. *cited by* Johnnes Quasten, vol. 2, 79

[82] "He [the Son] inferior to the Father"; ANF, Vol.4, *Conta Celsus*, Book 8. Ch. 15, 645.

[٨٣] حاول كل من *Williams* و*Ayres* أن يبررا أفكار اوريجانوس واصطلاحاته، بقوله إنه كان متأثرًا بالتنزيهية الأفلاطونية، وكان يحارب النزعات المادية الرواقية، إلا أن الأوريجانية إشكالية لها أبعاد كثيرة، ونحن لسنا بصدد أحكام ونتائج، إننا بصدد عرض الفكر الوارد إلينا، وكيف سار وصار وتدفق وأثر وأثرى.

[84] *Commentray on John* 2.149, *cited by* John Behr, 187

[85] *Commentray on John* 2.151, *cited by* John Behr, 187

لأوريجانوس، قد أكَّد على أن اللّه هو الصالح بطبيعته αὐτοαγαθός وهو مصدر الصلاح لكل الأشياء بما في ذلك الابن[٨٦]، مستندًا على قول المسيح له المجد للشاب الغني: «ليس أحد صالح إلا اللّه» (مر ١٠: ١٨)، مُفسّرًا إياه خطأً. كان أوريجانوس مترددًا[٨٧] كما يقول *Williams* فتارة يقول أن الابن في الآب *in the Father* وأخرى يقول إنه مِن إرادته[٨٨] *from his Will* وهو ما أخذه الطرف المناوئ لنيقيه بزعمه أن "مَن هو مِن الإرادة لا يُمكن أن يكون مِن الجوهر"[٨٩] وكانت "مونارخيته" الحادة هي ما جعلته يخشى أن يفهم البعض عبارة «في البدء *in the beginning* كان الكلمة» كمرادف لـ *in a source*، ولعل الكلمة اليونانية ἀρχή تحمل معنى البداية أو الرأس والمصدر[٩٠]، ويبقى الفارق هائلاً بين أريوس وأوريجانوس بل ولا توجد مقارنة، فالأول قال أن الابن لا يعرف الآب، في حين أن أوريجانوس أكد على معرفة الابن لِلآب، وقال فكيف يعلنه إن لم يكن يعرفه، ولأن نقطة الانطلاق اللاهوتيّة عنده هي التأكيد على عدم وجود شيء مادي في ذات اللّه، أو أن طبيعة اللّه غير ماديّة[٩١]، فهي بالتالي طبيعة عقليّة أو روحيّة بسيطة غير مرئيّة (ليس بحسب خصائصها بل بحسب طبيعتها الذاتيّة) ولذا فهي غير مرئيّة بالطبيعة لأي شخص، وهو ما جعل الأريوسيون يأخذون كلامه هذا على أنه

---

[86] John Anthony MacGukin, *The Westminster Handbook to Origen*, Westminster John Knox Press 2004, p110.

[٨٧] لكن ميّز *Williams* بين تردد أوريجانوس في اصطلاحاته وأفكاره ووضوح أريوس في أفكاره الهرطوقيّة، (Arius, 144) والمقصود هو أن اوريجانوس يُعلن إلوهية الابن المتساوية للآب ثم يعود أدراجه إلى "الاعتماديّة والتدنّاوية" لكن أريوس كانت أفكاره واضحة في انحرافها لا تقبل الجدل، وكانت مُخالفة لكل سياقات العقيدة المسيحية فيما قبلها وفي زمنها وفي المسكونة كلها.

[٨٨] إنّ شرح عقيدة ولادة الابن من الآب كانت من الأمور الصعبة في ذاك الوقت (ما قبل نيقية)، لكن العقيدة نفسها كانت ثابتة تمامًا وواضحة عند الكل، فها أوريجانوس يصفها بالبهاء الصادر من النور وغير المنفصل عنه وغير السابق عليه، لكن هنا تعبير "مِن ارادته" لا يعني الانفصال أو الاسبقيّة الزمنيّة على الإطلاق، ولأننا ندرس الأمر سياقيًّا، نجد أن سياق تعاليمه لا يوجد فيه ولادة زمنيّة أو ماديّة، بل على النقيض لقد ناهض مثل هذه الأفكار، وربما هنا انساق وراء التضخيم والمُغالاة في تنزيهيّة الآب.

[89] Lewis Ayres, *op. cit.*, 27.

[90] G. L. Prestige, *op. cit.*, 146.

[91] John Anthony MacGukin, *op. cit.*, p108.

يتضمّن الكل بما فيهم الابن[٩٢]، وكان أريوس يعتقد أن الابن كان يتعبد للآب في السماء، وهذا الأمر لم يرد على الإطلاق في تعاليم أوريجانوس[٩٣]، لكن يقول الباحثون إن أريوس ربما حرف فكرة أوريجانوس في عدم تقديم العبادة للابن، وتقديمها بالابن في الآب[٩٤] *in the Son to the Father* ومن هنا نرى كيف فهم القديس أثناسيوس الاصطلاحات الأوريجانية بشكل صحيح، مُمتدحه، ومقتبسًا منه في كتابه "الدفاع عن تعريفات نيقية" ما نصّه "إذا كان هناك صورة للّه غير المنظور، فهي لا تكون أيضًا غير منظورة، وأني أقولها بكل جرأةٍ، بكونه صورة الآب *likeness*، فقد كان موجودًا دائمًا، لأنه متى دعُي اللّه ـ وقد دعي بحسب يوحنا نورًا ـ (لان اللّه نور) بدون بهاء مجده اللائق؟ فإن هذا الإنسان يفترض أن للابن بداية وجود، كما لو لم يكن له من قبل، متى كانت هذه الصورة لم تكن صورة وجود الآب غير الموصوف وغير المنطوق به؟ هذا الكلمة، الذي يعرف الآب، دعه يعرف جيدًا أن الذي يتجرأ ليقول إنه كان هناك وقت لم يوجد فيه، فإنه يقول، عندما لم تكن هناك حكمة، ولم تكن هناك كلمة، ولم تكن هناك حياة"[٩٥] ومن كل ما سبق نرى كيف أكد على إلوهية الابن وأزليته مع الآب، ونجد وبوضوح تعاليمه عن الولادة الأزليّة، والتمايز الأقنومي، لكنه لم يستطع أن يُوفّق اصطلاحًا ولغةً بين الاثنين.

لاهوتيات الـ γεννητός وبداية الصراع[٩٦]

---

92 Ibid, p110.
93 Rowan Williams, *op. cit.*, 144.
94 Idem.
95 NPNF, 2nd Series, vol. 4, 168
كما اقتبس قطعة أخرى في نفس الكتاب من اوريجانوس تؤكد أزلية الابن بكونه حكمة الله التي لابد وأن تكون أزلية معه، وذلك في سياق قوله إن الإيمان الأرثوذكسي وُرِث من أبٍ إلى أبٍ، مقابل التعليم الأريوسي الذي بلا جذور كما قلنا سلفًا.
٩٦ لا نفضل مع *Ayres* تحجيم الصراع بتعبير "الصراع الأريوسي" لأن الحقيقة أن أريوس كان أحد الاتجاهات الهرطوقية التي دخلت أو أشعلت الصراع إبان حقبة نيقية، لأنه قد تشكل فريق آخر "اليوسابيون" الذين تزعمهم

وهكذا ورثت الكنيسة من حقبة ما قبل نيقية بكل آبائها وقديسيها ومفكريها اصطلاحات وتعبيرات غير محددة رغم أنها ورثت إيمانًا وحياةً وروحًا ولاهوتًا واضحًا وثابتًا في جوهره وأركانه الأساسية، فكان عليها أن توفّق بين الاثنين وخاصة فيما يخص وضع الابن ومكانته وعلاقته بالألوهة الواحدة، وكما رأينا إنه وقد عُبِّر عن الآب بأنّه ἀγέννητος ولكن لابد أن نعرف ما هو المعنَى الحقيقي لهذا الاصطلاح، ولماذا أصبح مصطلح جدلي ونقطة خلاف في أثناء فترة نيقية، ومن ناحية التحليل اللغوي، فالكلمة هي نفي كلمة γεννητός من الفعل γεννάω الذي يُترجم إلى عدة معان كلها تحمل مفهوم الولادة مثل "يلد، أن يكون مولودًا، يُحضر أو يُنجب، يضع أو يلد، يحبل *conceive*، ينبع *spring*، ويُحدِث *make*"[٩٧] والكلمة من الناحية البشرية قد تتضمن معنى "السببية أو التسبيب *engendering* والإحداث والنشوء"[٩٨]، لأن مفهوم الإيلاد المادي يتضمن معنى السببية، فالأب والأم هما السبب في وجود أبنائهم، ومن هذا المنطلق طبّق الجانب المضاد لِنيقية هذا المعنى على الآب ليصبح "غير المخلوق" أو "الذي بلا بدء" مقابل الخليقة γεννητός وتعني عندهم "الذي يأتي إلى الوجود" *having come into existing* رغم أن الاصطلاح γεννητός يعني "مولود *begotten*" وفي حالة النفي "غير المولود"، ولا عجب لأن اللّغط الفكري قد يكون وراءه لغط وتشويش لُغوي، لكن ليس هذا فقط هو السبب في هذا اللغط الفكري، لأنّه كان هناك كلمتين مشابهتين تمامًا[٩٩] هما γενητός وἀγένητος بحرف (ν) واحد، لكن ليس لهم نفس المصدر أو الاشتقاق، فهُم من γίνομαι بمعنى

يوسابيوس أسقف نيقوميديا، كما كان هناك فريق آخر وهم أتباع أتيوس*Aetius* الذين شكّلوا الاتجاه المعروف بـ "الأريوسية المُحدثة *neo-arianism*"

[97] *The New Strong's Expanded Dictionary of the Bible Words*, Thomas Nelson Publishers 2001, p. 1023.

[98] *Thayer's Greek-English Lexicon of the New Testament* , Hendrickson Publishers, 8th edition 2007, 113.

[٩٩] وقد أشرنا إلى هذا النوع في مقالنا بالعدد السابق، وقلنا إنه يندرج تحت ما يُسمى بالـ *homonomy* والذي يعني وجود كلمتان لهم نفس النطق والتهجئة لكن لهم عدة معاني مختلفة، أو كلمتان لهم نفس النطق ولكن بتهجئة *spelling* مختلفة ولكل منهم معنى خاص به، وهي الحالة التي بين أيدينا الآن.

يَحدُث أو ينشأ (يتكوّن) أو يصير والذي سُمي به أول أسفار الناموس (سفر التكوين γενήσις) وهكذا ترى كيف أن لهم نفس النطق والتهجئة، يُميِّز بينهم حرفٌ واحدٌ فقط هو حرف الـ (ν) ولا يؤثِّر في أغلب الأحوال على النطق، والفارق في المعنى دقيق جدًا، لأنه، كما قلنا سابقًا، إن الـ γεννητός قد تتضمَّن ـ من الناحية البشريّة ـ تلميحًا عن السببيّة، وهو ما جعل عالِم مثل *Prestige* يقول إن المصطلحين كانا من الممكن استبدالهما ببعض، أو استخدامهم كمترادفات[١٠٠]. لكن دعنا نقترب أكثر إلى دراسة الأمر دلاليًا من خلال الخلفيات التداولية *pragmatic*، فنشأة التشويش بين المصطلحين يعود إلى استعمالهم الفلسفي، لذا فسنتناول هنا استخدام الكلمة في السياقات الفلسفيّة، وسنُكمل بمحبّة الرب وسماحه في مقالنا التالي السياقات اللاّهوتية.

مفهوم الـ γενητός (بحرف ν واحد) في الفلسفة عامّة وعند أفلاطون خاصّة:

لقد استخدم الفلاسفة اليونانيون هذا المصطلح، ولعلّ أوّل من استخدمه هو بارمنيدس الإيلي *Parmenides of Elea* في تمييزه بين من له الكينونة ὅν أو τό "الكائن على الدوام *that which is*"[١٠١] ومن هو حادث τό γιγνόμενον أو صائر *that which is generated* " إذ إنّه [مَنْ هو كائن على الدوام] αγένητον وغير فاني *indestructible*، وهو الكل، المُتفرِّد، غير المُتحرِّك، والـ αγένητον"[١٠٢]. ومن ثمّ استخدمها أفلاطون في تناوله موضوع النفس في كل من محاوراتيه؛ فيدروس *Phaedrus* وطيماوس *Timaeus*. في الأولى قال إن النفس هي التي تُحرِّك ذاتها وهي علّة وبداية

---

[100] G. L. Prestige, *op. cit.*, p38.

[١٠١] كما ترجمها شوقي تمراز في مجموعة محاورات أفلاطون الكاملة ١٩٩٤، الأهليّة للنشر والتوزيع بيروت، لبنان. انظر النص المُقتبس بعاليه. والدارس الجيد للفلسفة يعلم مدى تأثُّر أفلاطون ببارمنيدس (المولود في القرن الخامس قبل الميلاد) وهو من أهم الفلاسفة ما قبل سقراط، وهو الذي يدين له أفلاطون في تمييزه . وهو أول من ميّز . بين الوجود الحقيقي الثابت والوجود الزائف الظاهر، وهو ما كرّره أفلاطون مُضيفًا نظريته في المُثل.

[102] Thomas A.kopecek, *a History of Neo-Arianism*, Vol.1, 242.

الحركة لكلّ الأشياء الأُخرى، وبالتالي قد وصفها بأنها αγένητος، ويقول: "من الضروري أنّ كل الأشياء الـ 'حادثة[١٠٣] γενητός' تكون حادثة *generated* من مبدأ أوَّل، لكن هذا المبدأ لا يكون حادث من أي شيء". كما وصفه بنفس وصف بارمنيدس له إنّه: "غير فاني *indestructible*". وفي المقابل وصف كل السماء ومعها الأشياء الحادثة بأنها هالكة وإلى زوال، كي يؤكِّد أنّ الحركة الذاتيّة *self-motion* هي "الجوهر والمعنَى الذاتي للنفس". وفي محاولة طيماوس التي تدور حول الكوزمولوجيا أو نشأة الكون، أكَّد أفلاطون على عقيدته في وجود المُثُل، التى بالنسبة له هي الوجود الحقيقي أو *that which is* في مقابل العالم المادي الظاهري الـ "حادث γενητός" ونجد عنده نص قريب جدًا من بارمنيدس، يقول فيه: "ينبغي أن يعترف المرء أن المثال المتجانس ذاتيًّا *self-identical form* هو شيءٌ واحد غير حادث αγένητος وغير فاني".

ولا يفوتنا أن نركِّز على تنظيرات فيلو، لأن لها دورها الحِراكي، لأن فيلو كان يعتقد أن اللّوغوس هو وسيط في طبيعته، يقول: "لقد أعطاه الله امتيازًا خاصًّا ليقف على التماس، ليفصل بين ما هو حادث والخالق... إنه يتمجَّد بهذا الامتياز متفاخرًا بهذه الكلمات «أنا كنت [الكلام على لسان موسى النبي] واقف بين الرب وبينكم» (تث ٥:٥). إنه ليس غير حادث مثل الله، ولا حادث مثل الإنسان، لكنّه في منتصف الطريق بين الاثنين، موضع ثقة الاثنين". وهكذا، هذه النظرية (منتصف الطريق *midway*) تجعل اللّوغوس حادث وغير حادث، أو بطريقة أخرى ليس حادث وليس غير حادث[١٠٤]، وهي قريبة جدًا من نظرية أفلاطون، لأن أفلاطون قال هذا على مُثُله، وعلى روح العالم *world-soul* في طيماوس: "لقد ألّفها [روح العالم] الله من مواد وبطريقة سأصوِّرها الآن؛ منتصف الطريق *midway* بين الجوهر غير المنقسم وغير المُتغيِّر، وما هو حادث ومنقسم في أجساد، ومزجها في شكل جوهرٍ ثالث

---

١٠٣ ويمكن ترجمتها هنا في هذا السياق بالمُتحركة أو الصائرة، ونجد هنا أيضًا إصرار الفلاسفة على وحدة مصدر الكون، وهو أعظم ما توصلوا إليه بالمنطق والفكر.

104 Ibid, p248.

مُكّون من الاثنين... وصنع مزيج وسطي بين غير المُنقسم والمُنقسم في أجساد". وهكذا نرى أن لوغوس فيلون (وروح العالم الأفلاطونيّة) هو شريك في ما هو غير حادث αγένητος وشريك أيضًا فيما هو حادث γενητός، إنه هو نفسه الله ولا يزال مختلف عنه، وهو نفسه الخليقة ولا يزال مختلف عنها[١٠٥]، ولكن، استخدم الفلاسفة أحيانًا المصطلح بحرفي (ν) لأننا كما قلنا أن من الممكن استبدالهم ولكن هذا كان نادرًا جدًّا. لكن بعد وقوفنا على المفاهيم الفلسفيّة في سياقاتها وفحواها، لا نجد أبدًا أي معنى أو ملمح لمفهوم الولادة الأزليّة، فكلها افتراضات تمخَّض بها الفكر الفلسفي ليصل إلى النور لكنه لم يستطع. لقد كانت محاولة لها تقديرها، وقد أثنَى عليها كثيرٌ من الآباء مثل كليمندس السكندري ويوستين وغيرهم، فقد رأينا مُحاولة إحساس بأن الله ليس واحد مصمت مُفرّغ، لكن دون جدوى، فكلها نظريات (لا ـ نعم) و(مع ـ ضدّ)... إلخ. كلها أنصاف حلول وطرق وأرهاصات فكرٍ، وأضغاث أحلامٍ، وبحث حثيث عن إله حي مُتحرِّك مُحب في ذاته لم يُعلنه إلاّ اللاّهوت المسيحي في أعمق وأدق فهم لله، من خلال الإعلان الذاتي لله، في شخص يسوع المسيح، الكلمة المُتجسِّد الحي له كل المجد.

يُتبع

[105] Ibid, p249.